الفصل الثاني

في المذهب الديني لأصل الإنسان

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾

قرآن كريم

البحث العلمي كمدرسة إذا كان المنتهى غنيّاً عن مناهجها وموادها فإن المبتدئ فقير إلى ذلك والسوق كالدنيا يدخل فيها من يستقبل أعماره ويخرج منها من استوفى أجله فلا غرابة.

بيان التوراة لأصل الإنسان

التوراة أهم الكتب السماوية التي ذكرت بدء الكون وأقدمها لأصحاب الأديان الكتابية وإن كان الإسلام قد أنكر على بعض ما في التوراة من الأقوال والأفعال المنسوبة إلى الله وإلى رسل الله مما لا يجوز فإنه لم ينف بقاء الحقائق التاريخية من نصوص التوراة التي قال عنها القرآن: ﴿وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ﴾ [المائدة: ٤٣].

ونحن نورد هنا خلاصة ما جاء فيها من الكلام في بدء الكون وخلق آدم.

وقد جاء في الباب الأول والثاني من سفر التكوين ما مفاده بالإيجاز: -

(في البدء خلق الله السموات والأرض وكان على وجه الأرض ظلمة وروح يرف على وجه المياه وخلق الله النور وفصل بينه وبين الظلمة.

وخلق الله الجلد في وسط المياه وسمى الجلد سماء.

ثم جمع الله المياه تحت السماء في مكان واحد.

وأظهر اليابسة من الأرض ودعا الأرض اليابسة برا ودعا المياه بحاراً، وأنبت من الأرض عشبا وبقلا وشجرا ذا ثمر بأجناسها.

ثم خلق الله الأنوار في السماء لتفصل بين الليل والنهار ولتكون آيات وأوقات.

ثم خلق الله من المياه زحافات ذات نفس حية وبهائم ودبابات ووحوش بأجناسها.

ثم خلق الله الإنسان على صورة الله خلقه ذكراً وأنثى وباركهما وقال أثمروا وأكثروا واملأوا الأرض.

وسخر لهم ما في الأرض من نبات وحيوان.

وقد خلق الله الإنسان الأول من تراب الأرض ونفخ فيه الروح فصار نسمة حية، وغرس الله جنة في عدن ووضع فيها الإنسان الأول.

وكان نهر يخرج من عدن ليسقي الجنة فصار للنهر أربعة رؤوس.

اسم الأول فيشون واسم الثاني جيحون واسم الثالث حداقل واسم الرابع الفرات).

انتهى كلام التوراة.

(أقول) في هذا الكلام تقارب من رأي العلماء الطبيعيين الذين قالوا بالرأي السديمي لبداية الكون وإن الأرض قد مرت بأطوار وأدوار:

الأول: الدور النباتي والثاني الدور الحيواني والثالث الدور الإنساني.

وزادت التوراة على العلماء الطبيعيين بتعيين اسم الإنسان الأول الذي تاه في تعيينه الطبيعيون ولم يهتدوا إليه.

بيان التوراة لمهد الإنسان قبل الطوفان وبعده

لقد صرحت التوراة بأن الله خلق الإنسان الأول الذي سماه آدم من تراب الأرض وأنشأ له جنة في عدن وأسكنه وزوجته فيها.

ولعل عدن هذا هو المكان المعروف اليوم في الساحل الغربي من المحيط الهادي والهندي أم هو مكان آخر والله أعلم.

ولكن التصريح بكلمة عَدَن يكفي لرفع الريبة والشك في معرفة الموطن الأول للإنسان الأول قبل الطوفان.

وكذلك صرحت التوراة بأن مهد الإنسان بعد الطوفان كان بأرض بابل بما جاء في الباب السادس من سفر التكوين من قوله:

(وفسدت الأرض أمام الله وامتلأت ظلمًا فقال الله لنوح الذي كان يسير مع أمر الله إن نهاية كل شيء قد أتت أمامي فها أنا مهلكهم بالماء فاصنع أنت فلكًا من خشب واجعل في الفلك مساكن فادخل أنت وبنوك وامرأتك ونساء بنيك في الفلك وخذ من كل حي اثنين وذكر وأنثى من كل جنس لاستبقاءها معك وخذ لنفسك من كل طعام يؤكل.

عمل نوح بأمر ربه ودخل الفلك وقومه فأمطر الله على الأرض أربعين يومًا وليلة فامتلأت الأرض ماء فارتفع الفلك على المياه يسير ويجرى، فمات كل ذي روح يدب على الأرض ولم يبق غير نوح ومن ركب معه الفلك ثم أرسل الله ريحًا من السماء فهدأت المياه فانسدت في الأرض فكفت السماء عن المطر فاستقر الفلك على جبل أراراط[1].

ثم قال: وبارك الله نوحًا وبنيه الثلاثة فقال لهم أثمروا وأكثروا املأوا الأرض.

فمن هؤلاء الثلاثة سام وحام ويافث تشعبت كل الأرض، وكانت أهل

(١) وفي القرآن أن سفينة نوح رست على جبل الجودي.

الأرض كلهم يتكلمون لغة واحدة وكانوا يعيشون في بلد واحد ثم تفرقوا في البلاد.

وحدث في ارتحالهم شرقًا أنهم وجدوا بقعة في أرض شنعار وسكنوا هناك ثم أرادوا أن يبنوا بناء شامخًا رأسه في السماء (مجدل) فجمعوا أمرهم على ذلك فأنزل الله عليهم غضبه وبدد شملهم وبلبل لسانهم فلذلك سمى الأرض أرض بابل) راجع الأصحاح الحادي عشر من سفر التكوين.

الخلاصة: أن التوراة صرحت بأن السلائل البشرية بعد الطوفان ترجع إلى أبناء نوح الثلاثة وعلى هذا الاعتقاد كان اليهود وسائر بني إسرائيل قاطبة من أيام موسى إلى من بعده من الأنبياء حتى جاء النبي عيسى وأتباعه النصارى ليس لهم عقيدة أخرى في بدء الكون وفي الإنسان الأول وموطنه غير الذي في التوراة.

ولم يزالوا على ذلك إلى يومنا هذا.

ولما جاء الإسلام وأخبر المسلمين أن اليهود والنصارى من أصحاب الكتب السماوية وأن التوراة والإنجيل في الأصل منزلان من الله ولا يسقط عنهما التقديس دخول التحريف على بعض كلماتهما وأحكامهما.

ظل المسلمون يرجعون إلى أهل هذين الكتابين في تفصيل ما أجمله القرآن من أمور القصص والتاريخ وشئون بني إسرائيل.

فأخذ المسلمون مع ما أخذوا من أهل الكتابين ما لم يفصله القرآن من قصة آدم ونوح فتمسكوا بها فصار اعتقاد هؤلاء الثلاثة اليهود والنصارى والمسلمون سواء في أخبار من قبلهم من الأنبياء ومن عاصروهم من الأمم والملوك.

هل كان أهل مدينة إليفى نصارى أو وثنيين

وهل بقى أهالي مدينة إليفى حتى اليوم وثنيين يؤمنون بالخرافات والأساطير أم هم نصارى يؤمنون بصدق التوراة أم لا يؤمنون بها؟

والظاهر أن أكثر أهل إليفى اليوم مسيحيون ولكنهم جمعوا بين اعتقادهم بأساطير أجدادهم الكاذبة وبين صحة اعتقادهم بأخبار التوراة لبدء الكون وقصة آدم ونوح وموطنهما كما في التوراة، ولكنهم يريدون أن يحملوا كرها نصوص التوراة من المعاني ما لا تحتمل ولا يوافقهم على ذلك علماء النصارى في أنحاء العالم.

ولنسألهم هذا السؤال الآتي ليجيبوا عليه.

إذا كانت مدينة إليفى شيئًا مذكوراً عند الله والناس في عهد سيدنا موسى وعند نزول التوراة فكيف سكت عن قصة إليفى صراحة وقصة اليرباويين جملة ولم يذكرها كما ذكرت قصة بني إسرائيل وبني إسماعيل وموطنهم، أو كما ذكرت بلاد مصر واليونان والرومان والفرس والكلدان والجرامقة وهلم جرا.

ولو أن أهل إليفى وقفوا عند حدهم ورضوا بأن ينتسبوا إلى الزنوج لكان خيراً لهم وأسلم من هذه الجرأة التي حملتهم على تحريف كلمات التوراة إلى ما يوافق الخرافات والأساطير التي توارثوها من آباءهم وأجدادهم.

بيان القرآن في أصل الكون وأصل الإنسان

قال تعالى في بدء الكون:

﴿ أَوَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا

فِيهَا فِجَاجًا سُبُلاً لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٣١) وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ (٣٢) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾[الأنبياء: ٣٠- ٣٣].

وقال في خلق الإنسان وأصله:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَأٍ مَسْنُونٍ (٢٨) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٢٩) فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ [الحجر: ٢٨- ٣٠].

وكذلك أوضح الله تبارك وتعالى أنه خلق الذكر أولاً ثم خلق منه الأنثى بقوله:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

وأوضح أن أصل الإنسان واحد لا متعدد بل تكاثروا وتفرعوا من ذلك الأصل الواحد إلى العشائر والقبائل والشعوب والأمم بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[الحجرات: ١٣].

كما أن تعيين اسمه آدم وأنثاه حواء علْمٌ وعدم تعيين ذلك في مذهب التطوريين جَهْلٌ حتى ولو كان الاسمان مأخوذين من صفة لون الأرض وآدم من أديم تراب الأرض وحواء مؤنث آدم من غير لفظه.

وأخبر الله في القرآن أن سائر البهائم المتعددة والوحوش المتجانسة والقرود المتشابهة والأسماك في البحار والطيور في السماء كلها أجناس قائمة بنفسها لا متفرعة من بعضها قال تعالى:

﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨].

وأخيراً صرح القرآن بأن الإنسان هو أكرم جميع خلق الله في الأرض في قوله: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾ [الإسراء: ٧٠] فأي بيان أو علم أو بحث أو رأي أشمل وأكمل وأصدق مما ذكره القرآن في بدء الكون وأصل الإنسان؟

المهد الأول للإنسان وموطنه الأصلي في القرآن

لما أخبر الله بخلق آدم كما سبق لم يصرح بالمكان الذي خلقه فيه هل في الأرض أم في السماء ولكن سياق الآيات الواردة في خلقه دلّ على أن الله خلقه في الأرض لا في السماء كما توّهمه أكثر علماء الإسلام الذين ظنوا أن الله خلقه في السماء ثم أهبطه إلى الأرض.

وقد أدت بهم المفاهيم الخاطئة إلى ذلك من قوله تعالى: ﴿اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً﴾ [البقرة: ٣٨] ظنوا أن يكون الهبوط من السماء إلى الأرض، مع أن الهبوط يكون من مكان مرتفع من الأرض إلى مكان منخفض فلا يلزم أن يكون الهبوط من السماء.

ومن الآيات التي دلت على أن خلق آدم كان في الأرض قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠] وقوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ﴾ [آل عمران: ٥٩] وقوله: ﴿مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٢٦] وأوضح الله تعالى أنه خلق آدم من الأرض ليعيش في الأرض ويموت في الأرض ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ [طه: ٥٥].

كل هذه الآيات قد دلت على أن خلق آدم كان في الأرض لأن المادة الأصلية لخلقه كانت في الأرض لا في السماء.

وإذا كان هناك هبوط لشيء من السماء إلى الأرض فالروح التي هي علوية هي التي هبطت إلى الجسم الذي هو سفلي على حد قول ابن سينا:

هبطت إليك من المحل الأرفع ... ورقاء ذات تعزز وتمنع

وصلت على كره إليك وربما ... كرهت فراقك وهي ذات تفجع

مكة المكرمة أقرب مكان لمهد الإنسان الأول

لم يصرح القرآن بالمهد الأول للإنسان كما صرحته التوراة أنه بعدن وليست عدن ببعيد جداً عن مكة المكرمة، وبرح الخفاء لما صرح القرآن بأول بلد في الأرض وسماه أم القرى بقوله: ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الأنعام: ٩٢، الشورى: ٧].

فماذا يعني أم القرى إذا لم تكن الموطن الأصلي للإنسان؟

وكـذلك صـرح القـرآن بأن أول بيت وضع للناس هو الذي بأم القـرى وقال : -

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِـعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَـكَّةَ مُبَـارَكًا وَهُـدًى لِّلْعَـالَمِـينَ ﴾ [آل عمران : ٩٦] فماذا يعني أول بيت في أم القرى إن لم يكن أول بيت لأول إنسان؟

اختلف المفسرون في معنى أول بيت وضع للناس هل كان ذلك للعبادة فقط أم كان للعبادة والسكن معًا؟

والظاهر أنه أول بيت للعبـادة والسكن معًـا، ومن دلائل ذلك مـا رواه الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية من أنه :

بعث الله جبريل إلى آدم وحواء فقال لهما ابنيا لي بيتا فخط جبريل فجعل آدم يحفر وحواء تنقل حتى أجابه الماء ونودي من تحته حسبك يا آدم فلما بنيا أوحى الله إليه أن يطوف به فقيل له أنت أول الناس وهذا أول بيت، ثم تناسخت القرون حتى رفع إبراهيم القواعد منه، وجاء في كتاب الكعبة والعلم الحديث للدكتور على محمد مطاوع من منشورات مجمع البحوث الأزهرية الإسلامية :

إن الله أنزل خيمة من خيام الجنة ووضعها في موضع الكعبة وأمر آدم أن يسير إلى مكة وكانت الملائكة تحرس هذه الخيمة وأمر الله آدم أن يبني البيت على تصـميم وتخطيط الخيمة وقال بعضـهم : لم تزل خيمة آدم في مكانها حتى قبضه الله فرفع الخيمة من الأرض وبقى أثرها وجاء شيث بن آدم فبنى مكانها بيتًا بالطين والحجارة من خمس جبال : جبل طور سيناء وطور زيتا وجبل عرفات وجبل لبنان وجبل الجودى .

فما زال البيت معموراً حتى كان زمن نوح فخفى مكانه حتى أتى عليه الطوفان ولم يبق إلاَّ ربوة فتركها فوق ربوة.

ولما أوحى الله إلى إبراهيم وهو بفلسطين أن يأخذ زوجته هاجر وابنها إسماعيل إلى واد غير ذي زرع (برية سبع بفاران) عند بيت الله الحرام ففعل ذلك إلى أن شب إسماعيل وأمر الله إبراهيم وإسماعيل أن يرفعا قواعد البيت وظلل الله مكان البيت بالغمامة حتى عرفا القواعد وذلك معنى قوله: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ﴾ [الحج: ٢٦].

فكان إبراهيم مجدداً لبناء البيت لا مؤسسًا له، ولهذا قال شاعر يذكر المرات التي تجدد فيها بناء الكعبة:

بنى عرش بيت الله عشر فخذهم ... ملائكة الله الكرام وآدم

فشيت فإبراهيم ثم عمالق ... قصي قريش قبل هذين جرهم

وعبد الإله ابن الزبير بنى كذا ... بناءٌ لحجاج وهذا متمم

وزاد بعد ذلك بناء السلطان مراد التركي ثم البناء السعودي الحالي.

خلاصة البحث

إن من الخصائص التي امتازت بها مكة المكرمة وجعلتها أهلاً لأن تكون المهد الأول للإنسان ما يأتي:

أولاً: موقعها الجغرافي الوسط بين آسيا وأفريقيا وأوربا مما جعل العلماء المسلمين يسمونها (سُرَّة العالم).

ثانيًا: تجرد الطائف بهذا البيت من كل ملبوس غير إزار ورداء ونعلين مما يشير إلى ما بدأ به الإنسان الأول من اللباس قبل اختراع القميص والسروال على مختلف الأشكال.

ثالثًا: طواف الناس حول هذه النقطة إشارة إلى أن الكون كله لا يسير في جهة واحدة على الطول بل يدور حول النقطة التي اختارها الله لكل شيء كما هو مشهود في دوران الأرض حول الشمس ودوران القمر حول الأرض ودوران الشمس حول المجرة.

يقول السماني:

والنقطة الدائرة المشيرة لوحدة المشاعر الكثيرة

رابعًا: صرف الله قلوب العباد إلى زيارة هذا المكان وتقديسه كل عام وعلى الأقل منذ أربعة آلاف عام من عهد إبراهيم أبي الأنبياء إلى يومنا هذا الدليل ينطق بحرمة هذا المكان وحقه على بني الإنسان.

أهل الأديان وأهل التاريخ القدماء

إن أصحاب الكتب السماوية الثلاثة (التوراة والإنجيل والقرآن) متفقون على الاعتقاد بأن آدم هو الإنسان الحضاري الأول وإن الموطن الأول للإنسان الأول كان بآسيا إما بعَدَن حسب نص التوراة وإما بمكة أم القرى موضع أول بيت أو بالقرب منها حسب نص القرآن.

خلافًا لأصحاب الأساطير الذين يريدون أن يبدلوا معلومًا بمجهول فاختاروا الأدنى على الذي هو خير.

وخلافًا لأصحاب التطور والتاريخ الطبيعي الذين يقولون بتعدد أصل الإنسان وتعدد المهد الأول للإنسان.

أو الذين يقولون بتحول الإنسان من القرود فتاهوا في بيداء الجهالة ولم يعرفوا المكان الأول والمهد الأول للإنسان واسم الإنسان الأول.

وقد اتفق علماء الأديان الثلاثة واتفق معهم علماء التاريخ الذين سجلوا الحوادث والوقائع منذ عشرة آلاف سنة في كل بلد من بلاد الفرس والكلدان ومصر واليونان والعرب والرومان.

إن أصل الإنسان الأول كان في آسيا ومنها تفرقت أجناسه إلى أفريقيا وأوربا وأمريكا قبل انفصال القارات عن بعضها بالحوادث الكونية.

●●●